«٢»

الأشعث بن قيس الكندي

سيد كندة - إسلامه - زواجه أم فروة - بيعة الصديق - شرارة فتنة - تطور الموقف - الأشعث في الميدان - المعركة الفاصلة - الأشعث أمام الخليفة - نشاطه الحربي والسياسي - أحفاد الأشعث

❖ سيد كندة:

سيد من سادات كندة وأمير من أمرائها المعروفين بالفصاحة والشجاعة، كان أبوه قيس ملكاً عظيم السلطان، وكان صاحب ثروة وكرم وشهرة واسعة، قصده الشعراء ومدحوه وأثنوا عليه، وكان يقود بنفسه جيوشه في الغزوات والحروب التي تنشب بينه وبين جيرانه من مذحج وبني عامر وغيرهم من العرب، وفي إحدى حروبه مع مذحج وقع ابنه الأشعث أسيراً ففداه بثلاثة آلاف بعير بزيادة ألف بعير عن دية الملوك.

نشأ الأشعث - لذلك - في أحضان الملك ونعيمه وأبهته، واكتسب من محيطه خبرة بشؤون الحرب وتصريف الأمور، وورث عن أبيه مكانته في كندة ونفوذه بينهم، وكان خليقاً بذلك لشجاعته وإقدامه ودهائه وفصاحته.

وشهد الأشعث كثيراً من الحروب مع أبيه فجعلت منه بطلاً مغواراً بصيراً بالحرب، رابط الجأش ثابت العزيمة، ولما قتل أبوه سنة ٣٥ بعد الميلاد النبوي في إحدى وقائعه الحربية مع قبيلة مراد جمع جموعاً كثيرة

لقتالهم واشتبك معهم في معارك انتهت بوقوعه أسيراً في أيديهم ولم يطلق سراحه حتى افتدي بألف ناقة وألف طرفة من طرائف اليمن.

ولم يكن الملك في هذا العهد يعرف نظاماً أو حدوداً معينة، إنما هي سلطة مطلقة لا حدّ لها، أشبه ما تكون برئاسة القبائل التي تعتمد على العصبية ولا تتقيد بنظام خاص، وقد كان صاحبنا الأشعث يعتمد في نفوذه على عشيرته من بني الحارث بن معاوية، وكان يقيم في محجره الخاص بين منازل قومه.

وقد عاصر الأشعث أمراء آخرون من كندة وغيرهم لهم في مناطقهم وبين عشائرهم ما للأشعث من نفوذ وسلطان، فكان في بني عمرو بن معاوية خمسة رؤساء أو أمراء كلهم إخوة أبناء أب واحد وهم: جمد ومخوس ومشرح وأبضعة وأختهم العمرَّدة، وكان لكل منهم وادٍ يملكه ومحجر خاص يقيم فيه، وكان لغير هؤلاء أمراء آخرون يقيمون في شبام ودوعن وعمد وجردان والشحر وغيرها من مناطق الدواخل والسواحل.

❖ إسلامه:

لما جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً، كان الأشعث بن قيس رئيس أكبر الوفود الحضرمية التي قدمت على النبي - عليه السلام - في السنة العاشرة من الهجرة، فقد تحدث التاريخ بأن الأشعث تجهز في ثمانين راكباً من قومه اختاروا لهم أجود إبلهم وأقواها وأعدوا لهذا السفر الطويل الشاق من زاد وسلاح وأبّهة ما حسبوا أنه يكبرهم في صدور من يمرون بهم من العرب في اليمن ونجران، ومن يقدمون عليهم في الحجاز من سادات قريش وأشراف الأوس والخزرج.

ومرت أسابيع وركب الأشعث مجداً في سيره يطوي الوهاد والنجاد ويقطع المفاوز والأودية ويمر بسادات القبائل ورؤسائها فيقابل بما هو له أهل من ترحاب وإكرام حتى يقدم المدينة بعد ما يقرب من شهرين.

وبينما كان النبي - عليه السلام - ذات يوم في المسجد بين أصحابه يتحدث إليهم كعادته، أقبل الأشعث في ركبه الفخم يشق شوارع المدينة لا يفارقون ظهور إبلهم حتى وصلوا المسجد فأناخوها بفنائه، ودخلوا على النبي في أحسن هيئتهم، قد رَجَّلوا لممهم وتكحلوا ولبسوا جبب الحبر بطنوها بالحرير - والحبر أثواب يمانية ذات خطوط تنسج من القطن أو الكتان - فبالغ النبي في إكرامهم والحفاوة بهم، وكان مما قاله لهم حين رآهم يلبسون الحرير: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى. قال: فما هذا الحرير في أعناقكم؟ فبادروا فشقوه من جببهم وألقوه.

❖ زواجه أم فروة:

ولم يشأ الأشعث أن ينصرف إلى حضرموت حتى يربط هذه الزيارة التاريخية بصلة متينة، فخطب «أم فروة» بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق، ولم يتردد الصديق في قبول هذه الخطبة إذ كانت بمعرفة النبي - عليه السلام - وموافقته، وبذلك أصهر الأشعث إلى قبيلة تيم القرشية وإلى كبير المسلمين وأكثرهم حظوة عند رسول الله وصاحبه في الغار، وهي بعد ذلك عمة أم المؤمنين وزوج رسول الله عائشة الصديقة بنت الصديق، ولكن زواجه لم يتم بها إلا في السنة الثانية عشرة من الهجرة بعد وفاة رسول الله وفي خلافة الصديق.

ويذكر بعض المؤرخين أن النبي - عليه السلام - خطب قتيلة بنت قيس أخت الأشعث، كعادته في الإصهار إلى قبائل العرب رغبة في تقريبهم إلى الإسلام وتوكيداً للصلات التي يسعى النبي - عليه السلام - في عقدها مع قبائل العرب الكبرى، ولكن رسول الله توفي قبل أن تقدم عليه.

❖ بيعة الصديق:

لم يمض على إسلام الحضارم سنة واحدة حتى قدم البريد بكتاب من الخليفة الأول إلى زياد بن لبيد يخبره بوفاة النبي ويأمره بأخذ البيعة على من

قِبَلَه من أهل حضرموت، فجمع زياد الناس، وقام فيهم خطيباً: أخبرهم بموت النبي - عليه السلام - ودعاهم إلى بيعة أبي بكر، فأسرع الكثير منهم إلى البيعة، وتردد البعض وتأخر عن المبايعة وكان في مقدمة هؤلاء الأشعث بن قيس فقد اعتزل في جماعة من كندة.

والواقع أن الناس كانوا حديثي عهد بالدين الجديد ولم يعرفوا بعد نظام الحكم في الإسلام شأنهم شأن غيرهم من العرب الذين تأخر إسلامهم ولم يفوزوا بشرف الاتصال المباشر بالنبي - عليه السلام -، والاستماع إلى أحاديثه وتعاليمه، ففاجأهم موت النبي - عليه السلام - قبل أن تتهيأ أذهانهم لمعرفة الوضع السياسي الذي ينبغي أن يخضع له المسلمون، فحصل اضطراب في كافة أنحاء الجزيرة.

تأخر فريق من العرب عن البيعة لأبي بكر وامتنع فريق عن دفع الزكاة وتطلع بعض من لم يخلص للإسلام إلى الفتنة لهوى في نفوسهم، وكان رأي بعض زعماء كندة أنه إذا خضعت حضرموت لحكم النبي حال حياته فلا مانع من أن تستقل عن سلطة من يتولى الحكم بعده، ومن هؤلاء حارثة بن سراقة الكندي الذي عَبَّر عن هذا المعنى بقوله:

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكر
أيورثها بكراً إذا كان بعده فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ولكن الخليفة أبا بكر استعمل الشدة والحزم في هذه الفتنة، فأسرع إلى قتال المرتدين والمتخلفين عن البيعة والمانعين للزكاة فكان النصر حليفه، ولم تمض السنة التي لحق بها الرسول بربه حتى عادت الجزيرة العربية إلى وحدتها أشد إيماناً بدينها وأقوى تمسكاً به.

❖ شرارة الفتنة:

إن دفع الزكاة لعامل الخليفة هو المظهر الأول للاعتراف بالخليفة والطاعة له، لذلك تولّى زياد جمع صدقات بني عمرو بن معاوية بنفسه

ليتأكد من صحة الأخبار التي بلغته عنهم، فقدم عليهم ذات يوم وهم بموضع لهم يسمى الرياض، فبدأ بغلام منهم يقال له شيطان بن حجر فأخذ فيما أخذ منه ناقة أعجبته ووَسمها بميسم الصدقة، وكانت هذه الناقة - واسمها «شذرة» - لأخي شيطان العداء بن حجر، وليست عليه صدقة، وقد ظن أخوه حين سلمها لزياد أنها من إبله، فقال العداء مخاطباً لزياد:

العداء: هذه ناقتي شذرة.

شيطان: صدق أخي فأني لم أعطكموها إلا وأنا أراها غيرها، فأطلق شذرة وخذ غيرها.

زياد: - متهماً لهما - لا. ولا تنعم ولا هي لك، لا سبيل إلى ردها، لقد وقع عليها ميسم الصدقة، وصارت في حق الله.

العداء: - منادياً قومه - يا آل عمرو بالرياض أضام وأضطهد؟ إن الذليل من أكل في داره. ونادى: يا أبا السميط عقلت ابنة المهرة، فأقبل أبو السميط حارثة بن سراقة فقصد لزياد وهو واقف:

حارثة: أطلق لهذا الفتى بكرته وخذ بعيرا مًكانها؛ فإنما بعير مكان بعير.

زياد: ما إلى ذلك من سبيل، لقد عقلتها ووسمتها بميسم الصدقة.

حارثة: أطلقها أيها الرجل طائعاً قبل أن تتركها وأنت كاره.

زياد: لا والله لا أطلقها.

حارثة: ذاك إذا كنت يهودياً. وقام إلى الناقة فحلَّ عقالها، وضرب على جنبها فبعثها وقام دونها وهو يقول:

يمنعها شيخ بخدَّيه الشيْب ملمع كما يلمع الثوْب

ونهض زياد غاضباً فصاح في أصحابه فاجتمع إليه شباب من حضرموت والسكون فأمرهم بالقبض على حارثة، فكتفوه وكتفوا شيطان والعداء وارتهنوهم، وأخذوا الناقة فعقلوها كما كانت، وكان زياد قد

اتهمهم[١] بالكفر ومباعدة الإسلام.

❖ تطور الموقف:

وهكذا تطور الموقف وتوترت العلاقات ولم يكن بد من الالتجاء إلى السلاح، فقد غضبت بنو معاوية لحارثة، ونادوا بحمل السلاح وأظهروا أمرهم، وانضمت إلى زياد حضرموت والسكون. واجتمع عسكران عظيمان من هؤلاء وأولئك، فأرسل زياد إلى بني معاوية يقول لهم:

زياد: إما أن تضعوا السلاح وإما أن تؤذنوا بحرب.

بنو معاوية: لا نضع السلاح أبداً حتى ترسلوا إلينا أصحابنا.

زياد: لا يرسلون أبداً حتى تتفرقوا وأنتم صاغرون.

السكون - لزياد -: إنه لا يحسم الخلاف إلا السيف، ولن يخضع بنو معاوية إلا للقوة، فاهجم عليهم وأعمل السيف في رقابهم.

ورأى زياد أن لا بد من تحكيم السيف فهجم عليهم ليلاً وقتل منهم عدداً وتفرق الباقون هاربين وخلى عن النفر الثلاثة فعادوا إلى أصحابهم مصممين على حرب زياد، وقالوا لهم: لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلو لأحد الفريقين، ونادوا بمنع الصدقة[٢].

وقيل لزياد: إن أقواماً من السكاسك قد انضموا إليهم وقد تسرع إليهم قوم من السكون وشذاذ حضرموت ويخشى أن يفض الناس إليهم من حولك، فالرأي أن تبادئهم بالهجوم وهم في منازلهم، فجمع زياد جيشاً كبيراً وهجم عليهم في محاجرهم فوجدوهم حول نيرانهم جلوسا فَأكبوا على بني عمرو بن معاوية وهم عدد القوم وشوكتهم من خمسة أوجه في خمس فرق، فقتلوا ملوكهم مشرحاً ومخوصا وًجمداً وأبضعة وأختهم العَمرَّدة،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج٢ .
(٢) الطبري ج ٢ .

وأكثروا القتل، وهرب من أطاق الهرب، وعاد زياد بالسبي والأموال، وأخذوا طريقاً يفضي بهم إلى عسكر الأشعث وبني الحارث بن معاوية.

❖ الأشعث في الميدان:

لما مر سبي بني عمرو بن معاوية بعسكر الأشعث استغاث النساء ببني الحارث بن معاوية وصرخن:

يا أشعث. يا أشعث. خالاتك. خالاتك.

وصاح الصبيان أيضاً، فحمي الأشعث أنفاً وثار في بني الحارث وخرج في جماعة منهم فعرض لزياد ومن معه ونشبت معركة أصيب فيها عدد من أصحاب زياد وانهزم بقيتهم، وخلص الأشعث نساء بني عمرو وأطفالهم.

وأدرك الأشعث أن زياداً لن يتركه بعد هذه الحادثة فجمع إليه بني الحارث وبني عمرو ومن أطاعه من السكاسك ومن حوله من القبائل واجتمعت إليه عظماء كندة مجمعين على منع الزكاة ومحاربة زياد وعدم الخضوع له.

وعظم على زياد عصيانُ كندة وتأَلُّبهم فكتب إلى أبي بكر يستمده، فكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية - وكان والياً على صنعاء - يأمره بإنجاد زياد وأن يسير مع عكرمة بن أبي جهل لقتال كندة، وكان هذا قد قدم أبين من ناحية عمان ومعه جيش كبير من مهرة والأزد وناجية وعبدالقيس.

والتقى المهاجر بعكرمة في مأرب، ثم تعجل المهاجر في سرعان الناس، واستخلف على الجيش عكرمة، وسار من مأرب ماراً برملة صيهد حتى قدم على زياد.

❖ المعركة الفاصلة:

كانت كندة قد تجمعت بمحجر الزرقان تحت قيادة الأشعث معلنة

العصيان مصممة على الدفاع متفقة على الخروج على سلطة الخليفة، وطابقت معاوية كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردة[١] إلا ما كان من شرحبيل بن السمط وابنه فإنهما قاما في بني معاوية فقالا: والله إن هذا لقبيحٌ بأقوام أحرار التنقل، إن الكرام ليكونون على الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا منها إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف بالرجوع عن الجميل وعن الحق إلى الباطل والقبيح، اللهم إنا لا نمالئ قومنا على هذا، وخرج شرحبيل وابنه حتى أتيا زياداً فانضما إليه[٢].

ولم يكن بُدّ من إخضاعهم للسلطة السياسية العليا في المدينة لتتم الوحدة التي أرادها الله لدينه وللمسلمين؛ لذلك أمر الخليفة بقتالهم، فقصد إليه زياد ومعه المهاجر قائد الجيش الذي أرسله الصديق من اليمن فالتقى الفريقان في محجر الزرقان في معركة طاحنة انهزمت على أثرها كندة، والتجأت إلى حصن لهم منيع فسيح يُدعى «النجير» على بعد ثلاثة أميال شرقي مدينة تريم، وكانوا قد أصلحوا من بنائه وحصنوه وقد تجمعت فيه كندة، ومن انضم إليهم من السكاسك وحضرموت والسكون.

كانت للنجير ثلاث طرق تؤدي كلها إليه، عسكر زياد على أحدها، وعسكر المهاجر على الآخر، وبقي الثالث لكندة يذهبون منه وتأتي منه إليهم المواد، فلما قدم عكرمة نزل بهذا الطريق وأحكم عليهم الحصار وفرّق الخيل في منازل كندة وأمر بمشاغبتهم ومناوشتهم، وبعث المهاجر إلى الساحل خالداً المخزومي وربيعة الحضرمي فقاتلوا المتخلفين عن البيعة المانعين للزكاة وأخضعوهم، وبعث يزيد بن قنان من بني مالك بن سعد إلى قرى بني هند في شرق وادي حضرموت إلى برهوت فأكثر فيهم القتل.

وبلغ كندة وهم في الحصار ما لقي سائر قومهم فقالوا: الموت خير

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٢ .

(٢) كان ذلك قبل تجمع بني معاوية في محجر الزرقان.

لكم مما أنتم فيه، جُزُّوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنعم عليكم فبؤتم بنعمه لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة، ثم جزّوا نواصيهم وتعاقدوا وتواثقوا ألا يفرّ بعضهم عن بعض، وجعل راجزهم يرتجز في جوف الليل فوق حصنهم ويقول:

صباح سوء لبني قَتيره ... وللأمير من بني المغيره

فلما أصبحوا خرجوا على الناس فاقتتلوا حول الحصن حتى كثرت القتلى في كل طريق من الطرق الثلاثة، وعادوا إلى حصنهم وقد كثرت فيه القتلى.

وأيقنت كندة أن جيوش الخليفة لن تنصرف عنهم وأن المدد لا ينقطع لهم، ورأى الأشعث أن لا مناص من التسليم فخرج من الحصن إلى عكرمة بأمان - وكان لا يأمن غيره - فأبلغه عكرمة إلى المهاجر واستأمنه له على نفسه وعلى تسعة نفر من أقاربه وبني عمه على أن يفتح لهم باب الحصن فأجابه إلى ذلك وقال: انطلق فاستوثق لنفسك ثم هلمّ كتابك أختمه، فكتب وثيقة الأمان للعشرة النفر، وفيهم أخو الأشعث وبنو عمه وأهلوهم، ولما أراد الأشعث أن يكتب نفسه وثب عليه معدان بن الأسود بشفرة وأخذ بحقوه وقال: اجعلني من العشرة أو أقتلك، فكتبه وترك نفسه، وقد عَدَّ أصحاب الأشعث تسليمه للحصن بهذا الشرط غدراً منه وخيانة.

فتح الأشعث باب الحصن فاقتحمه الجيش ولم يدعوا فيه مقاتلاً إلا قتلوه ضربوا أعناقهم صبراً، ثم وضعوا الحرس على ما في الحصن من عائلات وأموال، وقد بلغ عدد النساء ألف امرأة، ودعا الأشعث بأولئك النفر ودعا بكتابه فقرأه المهاجر، فإذا الأشعث ليس فيه فقال: الحمد الله الذي أمكن منك يا أشعث لقد كنت أشتهي أن يجزيك الله، وشدّه وثاقاً وهمّ بقتله، فقال له عكرمة: أخَّره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم في هذا، فقال المهاجر: إن أمره لبيّن، ولكني أتبع المشورة وأوثرها، وأخّره

وبعث به إلى أبي بكر مع السبي.

وكان عدد القتلى في هذه المعارك كثيراً، ويقدَّر عدد الأسرى بنحو ستة آلاف، وقد جرح من الصحابة رجال عادوا إلى تريم ليتداووا بها ويضمدوا جراحهم، فمات منهم جماعة ودفنوا فيما يعرف اليوم بمقبرة زنبل.

❖ الأشعث أمام الخليفة:

انتهت الاضطرابات في حضرموت بعد هذه الحادثة وعاد إلى البلاد هدوءها واطمئنانها، وتجهز الجيش عائداً إلى المدينة ومعه السبايا والأسرى ومن بينهم الأشعث، فدعا به أبو بكر وجرى بينهما الحديث التالي:

- ما تراني صانعاً بك يا أشعث؟
- إني لا أعلم برأيك.
- إني أرى قتلك.
- لقد فاوضت القوم في عشرة فما يحل دمي.
- أفوّضوا إليك؟
- نعم.
- ثم أتيتهم بما فوضوا إليك فختموه لك؟
- نعم.
- فإنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من في الصحيفة، وإنما كنت قبل ذلك مفاوضاً - أو تحتسب فيّ خيراً فتطلق إساري وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي وتردّ علي زوجتي، فوالله ما كفرت بعد إسلامي، ولكني شححت على مالي، فأطلقني واستبقني لحربك تجدني خير أهل بلادي لدين الله.
- انطلق، فيبلغني عنك خير.

وقبل الخليفة رجاء الأشعث وتجافى له عن دمه وردّ عليه زوجته،

وأراد الأشعث أن يولم وليمة بهذه المناسبة، فاخترط سيفه ودخل سوق الإبل فجعل لا يرى جملاً ولا ناقة إلا عرقبه.

فصاح الناس: كفر الأشعث، فلما فرغ طرح سيفه وقال: إني والله ما كفرتُ، ولكن زوّجني هذا الرجل أخته، ولو كنا في بلادنا لكانت وليمة غير هذه، يا أهل المدينة كلوا، ويا أصحاب الإبل تعالوا خذوا أثمانها، وقد عاشت معه أم فروة طويلاً وولدت له محمداً وإسحق وأم قريبة وحبانة[1].

❖ نشاطه الحربي والسياسي:

لما تحركت جيوش المسلمين إلى الشام لقتال الروم وكان الأشعث من بين أوائل المتجهزين لهذا الغزو، وقد شهد هناك وقعة اليرموك الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون في أواخر خلافة أبي بكر وبداية عهد عمر بن الخطاب، كما شهد وقعة القادسية بالعراق سنة خمس عشرة هجرية على رأس جماعة من قومه وقد أبلى في معارك العراق والشام بلاء حسناً، وكان له خطر كبير في هذه المعارك.

وكان الأشعث من بين أعضاء الوفد الذي أرسله سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في العراق إلى كبير فارس بالمدائن «يزدجرد» يدعونه إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وقد اختار سعد أعضاء هذا الوفد من أبرز ذوي الكفاءات والمؤهّلات الممتازة في جيشه، فلما دخلوا على «يزدجرد» وهو بين وزرائه وأهل مشورته قالوا له: اختر إن شئت الجزية وإن شئت السيف أو تسلم فتنجّي نفسك، فغضب «يزدجرد» وقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي.

وقد أثارت شجاعة الأشعث وبلاؤه في المعارك الحربية إعجاب القائد

---

(١) معجم البلدان.

العبقري الكبير خالد بن الوليد رضي الله عنه فأجازه مرة بعشرة آلاف عندما كان بقنسرين من أرض الشام، وكانت هذه الجائزة الكبيرة من بين الأشياء التي أغضبت الخليفة عمر بن الخطاب على خالد وكانت سبباً في عزله.

فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما وكان بالشام أن يستدعي خالداً وأن يعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلم أأجاز الأشعث من ماله أو من مال المسلمين؟

فإن زعم أنها من ماله فقد أسرف وإن زعم أنها من مال المسلمين فقد أقر بخيانته، وأمره أن يعزله ويتولّى عمله.

ولما قدم رسول الخليفة بهذا الكتاب كتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ولم يذكر له عن كتاب الخليفة شيئاً، بل جمع الناس وجلس لهم على المنبر، ثم قام الرسول الذي أوفده الخليفة يسأل خالداً:

رسول الخليفة: أمِن مالك أجزت الأشعث بعشرة آلاف أم من مال المسلمين؟

خالد: [ساكت، قد عقدت الدهشة لسانه].

رسول الخليفة: أجِبْ، أكانت العشرة الآلاف من مالك أم من مال الأمة؟

خالد: [صامت لا ينبس ببنت شفه].

رسول الخليفة: يلح في السؤال.

بلال - بأمر من عبيدة -: إن أمير المؤمنين أمر أن تعقل بعمامتك، وأن تنزع عنك قلنسوتك حتى تجيب عما تسأل الآن عنه.

خالد: [غارق في دهشته لا يخرج عن صمته].

بلال - يتناول قلنسوة خالد ويلم يديه وراء ظهره ويعقله بعمامته، ويقول -: ما تقول، أمن مالك أم من مال المسلمين؟

خالد - في هدوء ورزانة -: بل من مالي.

بلال - وقد أعاد قلنسوة خالد وعممه بيده -: نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخم ونخدم موالينا.

وقد كان الأشعث يسكن الكوفة أثناء الفتوحات الإسلامية في العراق وفارس. ولما توفي الخليفة عمر بن الخطاب ولاه الخليفة الثالث عثمان حكم أذربيجان فكان الأشعث عاملاً عليها[١] إلى أن أدركت عثمان الوفاة فكتب إليه علي بن أبي طالب أن يأخذ له البيعة من أهل أذربيجان ويَحْضُرَ إليه، وهذا بعض ما جاء في الكتاب:

«من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الأشعث بن قيس. أما بعد: لقد كان من بيعة الناس إياي ما قد بلغك، وكان طلحة والزبير أول من بايعني ثم نقضا بيعتي على غير حدث، وأخرجا أم المؤمنين إلى البصرة فصرت إليهما في المهاجرين والأنصار فالتقينا فدعوتهما إلى أن يرجعا إلى ما خرجنا منه فأبيا فأبلغت في الدعاء وأحسنت في البقاء. وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه أمانة في عنقك، والمال مال الله وأنت من خُزَّانِي عليه حتى تسلِّمه إليَّ إن شاء الله وعَليَّ ألّا أكون شَرَّ وُلاتك والسلام».

ولما تناول الأشعث خطاب علي قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس إن عثمان - رحمه الله - ولاني أذربيجان وهلك وهي في يدي، وقد بايع الناس علياً وطاعته لنا لازمة، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك.

وقد فكر الأشعث في أن يلحق بمعاوية، فدعا إلى منزله أهل ثقته من أصحابه[٢] وقال لهم: إن كتاب علي جاءني، وقد أوحشني وهو آخذي بمال أذربيجان وأنا لاحق بمعاوية. فقال القوم: الموت خير لك من ذلك،

---

(١) الكامل لابن الأثير.

(٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام؟

فعدل عن الذهاب إلى معاوية وقدم على الإمام - رضي الله عنه - وشهد معه حروبه مع معاوية في صفين.

وكتب التاريخ المعتمدة تروي القصة التالية فتقول: لما نزل معاوية بصفين سبق أصحاب علي إلى الماء وحال بينهم وبين أن يستقوا من الفرات، فحزن عليٌّ لما فيه الناس من العطش، وقال للأشعث: اذهب إلى معاوية فقل له: إن الذي جئنا به غير الماء ولو سبقناك إليه لم نَحُلْ بينك وبينه، فإن شئت خلَّيتَ عن الماء وإن شئت تناجزنا عليه، فانطلق الأشعث إلى معاوية فقال له: إنك تمنعنا الماء وايم الله لنشربنه فمرهم يكفوا عنه قبل أن تغلب عليه، والله لا نموت عطشا وَسيوفنا على رقابنا، ولما امتنع معاوية قال له عمرو بن العاص: لقد شجعت الجبان وحملت من لا يريد قتالك على قتالك.

وعاد الأشعث يقول للإمام علي: أيمنعنا القوم وأنت فينا ومعنا السيوف؟ خلّ عنا وعن القوم، فوالله لا أرجع إليك حتى أرده أو أموت دونه، فقال علي: لك ذلك، وانصرف الأشعث فنادى في الناس: من كان يريد الماء فميعاده الصبح فإني ناهض إلى الماء، فانضم إليه جماعة عند الصباح هجم بهم على أصحاب معاوية فزحزحهم عن الماء واستولى عليه.

وقد أدرك معاوية أهمية الأشعث في النزاع بينه وبين علي فأرسل إليه أخاه عتبة بن أبي سفيان يوم صفين وقال له: ألِنْ إلى الأشعث كلاماً، فإنه إن رضي بالصلح رضيت به العامة، فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفين نادى بالأشعث فأتاه فقال له:

«أيها الرجل، إن معاوية لو كان لاقياً أحدا غَيرك وغير علي لقيك، إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصّهر والعمل، ولست كأصحابك الأشتر وعدي وسعيد بن قيس

وغيرهم، لقد حاميت عن أهل العراق تكرماً وحاربت أهل الشام حمية، وإنا لا ندعوك إلى ترك علي ولا إلى نصرة معاوية، ولكنا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا».

فأجابه الأشعث: «يا عتبة، أما قولك إن معاوية لا يلقى إلا علياً فلو لقيني ما زاد ولا عظم في عيني ولا صغرت عنه وإن أحب أن أجمع بينه وبين علي لأفعلن، وأما قولك إني رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن فالرأس الأمير والسيد المطاع وهاتان لعلي، وأما ما سلف إلي من عثمان فوالله ما زادني صهره شرفاً ولا عمله غنى، وأما عيبك أصحابي فإن هذا الأمر لا يقربك مني، وأما محاماتي عن أهل العراق فمن نزل بيننا حميناه، وأما البقية فلسنا بأحوج إليها منكم» يعني ذلك الصلح.

وكان الأشعث من بين الذين أشاروا على الإمام علي بقبول التحكيم حين رفع أهل الشام المصاحف ودعوا إلى تحكيم كتاب الله، فقد قال له: يا أمير المؤمنين أرى الناس قد رضوا بما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد؟ قال ائته، فأتاه فقال لمعاوية: لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه تبعثون رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه. فقال الأشعث: هذا هو الحق، وعاد إلى علي فأخبره وقال له: لقد أنصفك القوم فأجبهم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، والله لئن لم تقبل هذا لا نرمي معك بسهم ولا حجر ولا نقف معك موقفاً، ثم كان من أمر التحكيم بعد ذلك ما هو معروف في كتب التاريخ.

ولم تطل بالأشعث حياة بعد ذلك فقد أدركته الوفاة وهو بالكوفة بعد قتل الإمام علي بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن بن علي، وله من العمر ثلاث وستون سنة.

❖ أحفاد الأشعث:

روى ابن قتيبة قال[١]: «لما قدم الحجاج العراق أميراً زوج ابنه محمداً ميمونة بنت محمد بن الأشعث بن قيس رغبة في شرفها مع ما كان لها من جمال وفضل في جميع حالاتها وأراد من ذلك استمالة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته ليكونوا له يداً على من ناوأه، وكان لها أخ يقال له عبدالرحمن ابن محمد بن الأشعث له أبهة في نفسه وكان جميلاً بهياً منطقياً مع ما كان له من التقدم والشرف فازدهاه ذلك وملأه كبراً وفخراً وتطاولاً، فألزمه بنفسه وألحقه بأفاضل أصحابه وخاصته وأهل سره وأجرى عليه العطايا الواسعة صلة بصهره وحباً لإتمام الصنيعة إليه وإلى جميع أهله».

«فأقام عبدالرحمن كذلك حيناً مع الحجاج لا يزيده الحجاج إلا إكراماً ولا يظهر له إلا قبولاً، وفي نفس الحجاج من عجبه ما فيها لتشمخه زاهياً بأنفه... حتى إذا عيل صبر الحجاج أراد أن يبتلي حقيقة ما يتفرس فيه وأن يبدي منه ما يكتم من غائلته، فكتب إليه عهده على سجستان فلما بلغ ذلك أهل بيت عبدالرحمن فزعوا من ذلك فزعاً شديداً فأتوا الحجاج فقالوا: أصلح الله الأمير إنا أعلم به منك ولقد أدبته بكل أدب فأبى أن ينتهي عجبه بنفسه ونحن نتخوف أن يفتق فتقاً أو يحدث حدثاً يصيبنا فيه منك ما يسوءنا، فقال الحجاج: القول كما قلتم والرأي كالذي رأيتم، ولقد استعملته على بصيرة فإن يستقم فلنفسه نظر، وإن يفترج سبيله عن بصائر الحق يُهدَ إن شاء الله....».

فلما توجه عبدالرحمن إلى عمله توجه وهو مصر على خلع طاعة الحجاج ولم يلبث أن أقدم على خلع الطاعة الأمر الذي أدى إلى حروبه مع الحجاج المعروفة في كتب التاريخ والتي لا نريد أن نطيل بذكرها هنا فالتعرض لذلك خروج عما نحن بصدده.

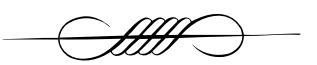

(١) الإمامة والسياسة.